أم حرام بنت ملحان

رضي الله عنها

obeikandl.com

obeikandl.com

أم حرام بنت ملحان

قال لي ولدي: ومَن التي بشرت بالجنة أيضاً يا أبي؟

قلت: إنها أم حرام الأنصارية يا بني، والدها ملحان بن خالد وأمها مليكة بنت مالك وكلا والديها من بني النجار، وأما زوجها فيدعى: عبادة بن الصامت أحد نقباء الأنصار الاثني عشر الذين بايعوا رسول الله ﷺ بيعة العقبة الثانية، ثم عاد إلى المدينة مع إخوانه النقباء، لينشروا دين الله، ويعلِّموا الناس أحكامه، ويقرؤوا فيهم القرآن.

وأخذت أم حرام وزوجها عبادة يترقبون مع سائر الأنصار هجرة رسول الله ﷺ إليهم بعدد أن يأذن الله، سبحانه وتعالى ـ له بذلك.

وفيما كان أهل المدينة يستعدون لاستقبال ضيفهم الكبير، سيد الوجود محمد ﷺ، سمعت أم حرام وعبادة صوت المنادي ينادي بوصول رسول الله ﷺ إلى ظاهر المدينة، فخرج أهلها شيباً وشباباً ونساءً وأطفالاً للقاء الحبيب الأعظم ﷺ.

وأخذ النساء والأطفال يهزجن ويرددن ذلك النشيد الخالد:

طلع البدر علينا
من ثنيات الوداع

قال: ومتى أسلمت أم حرام بنت ملحان يا أبي؟

قلت: لما عاد نقباء الأنصار إلى المدينة، كان واجبهم نشر الإسلام في أهل المدينة، فأسلمت أم حرام وأختها أم سليم وبعض نساء الأنصار وبعد أن استقر رسول الله ﷺ في المدينة، كانت أم حرام وأختها في مقدمة كوكبة من نساء الأنصار اللواتي بايعن رسول الله ﷺ، وأخذ رسول الله ﷺ يتردد على بيت عُبادة بن الصامت زائراً حيناً ومدعواً حيناً آخر، وكانت أم حرام تُحسن إعداد الطعام الشهي الذي تعده نساء الأنصار.

وكان رسول الله ﷺ كلما ذاق من طعامها شيئاً بدأ بحمد الله والثناء عليه، ثم سمَّى الله وابتدأ بالأكل، فإذا انتهى حَمِدَ الله ودعا لصاحبي البيت بالخير والبركة وبما شاء الله أن يدعو.

كان عُبادة رب البيت قد وضع نفسه وسيفه وماله رهن إشارة النبي ﷺ، فإذا دعا المؤذن للصلاة، صف عُبادة قَدَمَيْه مع المصلين خلف رسول الله ﷺ، فإذا قضيت الصلاة جلسوا يستمعون إلى حديث رسول الله ﷺ ويتلون كتاب الله، وينصتون إلى إرشادات رسول الله ﷺ ونصائحه في كل ما يهمهم في حياتهم الدنيا والآخرة التي يوعدون، وإذا نادى المنادي يدعو الناس إلى الخروج لجهاد الكافرين، وأعداء الله والدين، كان عُبادة بن الصامت في طليعة الملبين، ومقدمة المجاهدين، وكانت أم حرام مثلاً يُحتذى للمسلمة المؤمنة، العابدة القانتة، تقوم الليل، وتصوم النهار، وتجلس مع كتاب ربها قارئة متفكرة، تستعيد آياته لتحفظها، وتتدبر معانيها.

وكانت أم حرام وأختها أم سليم خاصة، وبقية نساء الأنصار لا يتحرجن من سؤال رسول الله عن أدق الأمور

المتعلقة بالطهارة استكمالاً لشؤون دينهن، وحتى لا يعتري عبادتهن نقص أو خلل يؤثر في الأجر والثواب الذي ينتظرهن، ويبدي تقصيرهن في طاعاتهن.

قال: وماذا كان من أمر أم حرام يا أبي؟

قلت: الحق يا بني: أن أم حرام كانت مواظبة على طاعاتها، وأداء فرائضها خير أداء، بل كانت تتقرب إلى الله بالنوافل كلما وجدت فرصة، ولم تكن من النسوة اللواتي يقطعن أوقاتهن باللغو والكلام الذي لا يجدي نفعاً، فكانت تملأ الفراغ إذا سنح بتلاوة القرآن وذِكْرِ الله، ترطب بهما لسانها، وتُطَمْئِن قلبها، قال تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرعد: ٢٨].

كان الجد والحق يشغلانها أما الهزل والباطل فما كان أبعدها عنهما! وكانت أم حرام تغبط زوجها على شيء واحد من دونها. إنه يصلي وهي تشاطره صلاته، وكان يصوم وهي تشاركه صيامه، حتى إذا قام ليله ليتهجد ويتلو آيات الله، لم تكن تتوانى عن صحبته ومرافقته في ذلك، غير أن الشيء الوحيد الذي كان يفعله من دونها هو خروجه لجهاد الأعداء، إنها تطمح إلى ثواب أرفع من ثواب الصلاة والصيام والقيام وتلاوة القرآن، لقد كانت تريد الجهاد في سبيل الله عساها أن تفوز بالشهادة.

ولم يكن ذلك الخاطر ليفارقها، حتى أصبح مهيمناً على تفكيرها في كل آن. وذات يوم قصد رسول الله ﷺ دار عبادة وأم حرام ليزورها كعادته، وبعد أن رَحَّبا بضيفهما الكبير أجمل ترحيب، جلس عُبادة مع رسول الله ﷺ يتحدثان، ثم انطلقت أم

حرام لتهيء وجبة من طعامها الشهي الذي اعتاد رسول الله ﷺ أن يتذوقه من صنع يديها. فلما فرغت أم حرام من إعداد الطعام وضعته بين يدي رسول الله ﷺ، وأخذ رسول الله ﷺ يدعو بدعواته المعتادة قبل البدء بالأكل ثم سمَّى بالله مع مضيفيه وراحوا يأكلون.

ولما فرغوا من الطعام حمدوا الله على نعمه، وشكر رسول الله ﷺ لِعُبادة كرمه، ولأم حرام جودة طهيها، وطيب طعامها، وأخذت الضيفَ غفوةٌ قصيرة، ويروي أنس بن مالك عن أم حرام بنت ملحان وهي خالته فيقول: (قالت: قَالَ ـ أي: نام ـ رسول الله ﷺ في بيتي فاستيقظ وهو يضحك. قالت: قلت: يا نبي الله، بأبي أنت وأمي، ممَّ تضحك؟ قال: «**ناس من أمتي يركبون هذا البحر كالملوك على الأَسِرَّة**»، قالت: قلت: يا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلني منهم، قال: «**أنت منهم**».

ثم أغفى رسول الله ﷺ، وذهبت أم حرام لأداء بعض واجباتها المنزلية، فلما رجعت إليه وجدت رسول الله ﷺ يستيقظ وهو يضحك، فقالت له: يا رسول الله، ممّ تضحك؟ قال: «**ناس من أمتي يركبون هذا البحر كالملوك على الأَسِرَّة**»، قالت: قلت: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم! قال: «**أنت من الأولين**».

وتهلل وجه أم حرام بالبشر والسرور، وامتلأت نفسها بالغبطة والحبور لهذه البشرى الغالية التي زفّها إليها رسول الله ﷺ، وباتت تنتظر وترقب موعدها على أحرٍّ من

الجمر.

وأخذت أم حرام تحدث نفسها، كيف ستتحقق أمنيتها؟ ومتى يكون ذلك! وكيف؟ والغزوات التي يخرج إليها رسول الله ﷺ، والبعوث التي يبعثها جميعاً، إنما تتم كلها في البر، فكيف ستخرج أم حرام غازية لتركب ظهر البحر؟

ولكن أم حرام تعلم علم اليقين أن رسول الله ﷺ هو الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وليست رؤياه التي حدثها بها أضغاث أحلام؛ لأن رؤيا الأنبياء حق، وهي صادقة كفلق الصبح.

وذات يوم نزل بالمسلمين أجل الخطوب، وتعرضوا لأشد الكروب، يوم انتقل الحبيب الأعظم، رسول الله ﷺ، إلى الرفيق الأعلى، ومن هول الخطب، ووطأة الكرب تحيّر الحكماء، واختلطت عقول العقلاء، وخرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحمل السيف بيده، ويتوعّد بالويل والهلاك كل من يزعم أن محمداً ﷺ قد مات.

ولكن الصوت الهادىء الضعيف كما عهده الناس، صوت أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه، تخلى عن هدوئه وضعفه، وتحول إلى هدير مُدَوٍّ غطَّى صوت عمر بهديره وهو يقول:

على رسلك يا عمر: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤٤].

أيها المسلمون! مَن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات،

ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت.

وانجلت العاصفة، وسكنت نفس عمر، وهدأت نفوس المؤمنين الذين بدا أنهم لم يسمعوا بهذه الآية من قبل، وعلى رأسهم العاقل اللبيب «عمر»، وأيقن الناس جميعاً، بأن رسول الله ﷺ انتقل إلى جوار ربه حقاً وصدقاً، وراحوا يقولون: إنا لله وإنا إليه راجعون كما أمر رب العالمين في كتابه المبين: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧].

واحتسبت أم حرام وزوجها عُبادة بن الصامت والمسلمون جميعاً رسول الله ﷺ عند ربه، وعلموا أن ما عند الله خير وأبقى لرسول الله ﷺ.

ومضى الحبيب الأعظم ﷺ قبل أن يتحقق وعده لأم حرام، ولكن يقينها بصدقه لم يتزعزع، وأملها بوعده لم ينقطع؛ لأنه الصادق الأمين كما كانوا يدعونه قبل الإسلام.

ووليّ أبو بكر رضي الله عنه أمور المسلمين، فسار في الناس كما سار فيهم رسول الله ﷺ، ولما عرض الإمارة على عُبادة اعتذر عنها؛ لأنه سمع رسول الله ﷺ يتحدث عن سوء مصير الأمير الذي يفرط في حق الناس وفي مال المسلمين، فأقسم ألا يكون أميراً على اثنين أبداً، وقبل الصدِّيق عذره، وأعفاه من الإمارة التي عرضها عليه.

ولما آل الأمر إلى عمر بن الخطاب بعد وفاة الصدِّيق رضي الله عنهما، عرض الإمارة على عبادة أيضاً، فلم يقبلها، غير أنه وافق على

أن يفقه الناس بدينهم، واستجاب ابن الخطاب لرغبته، فبعثه مع اثنين آخرين من كبار صحابة رسول الله ﷺ إلى بلاد الشام، وهما: معاذ بن جبل وأبو الدرداء رضي الله عنهما لينشروا نور الإسلام في ربوعها، واستقر مقام عبادة في فلسطين، يقوم بمهمة القضاء بين الناس.

واقترح معاوية بن أبي سفيان على خليفة المسلمين عمر بن الخطاب غزو البحر فأرسل عمر إلى واليه على مصر عمرو بن العاص رضي الله عنه يستشيره في ركوب البحر، ويسأله أن يصفه له.

وجاء رد عمرو إلى عمر غير مشجع، لما في ذلك الغزو من خطر كبير على حياة المسلمين، وأرسل عمر إلى معاوية يبلغه عدم موافقته على غزو البحر خوفاً على الناس من مخاطره وأهواله.

وسكت معاوية على مضض حتى تواتيه فرصة أخرى، وانتشرت الفتوحات الإسلامية في عهد عمر بن الخطاب على أوسع نطاق وفي كل الاتجاهات، وتوغّل قادة جيوش المسلمين في بقاع الأرض ناشرين دين الله الحنيف، رافعين راية الإسلام في جميع الأمصار التي يفتحونها سلماً أو حرباً طواعية أم قهراً، غير أن تلك الفتوحات كانت في نطاق البر، ولم يكن للبحر فيها نصيب.

وشاءت إرادة الله أن تمتد يد آثمة غادرة كافرة لتسكت صوت الحياة في جسد أمير المؤمنين وخليفة المسلمين، وإمام العادلين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه.

وبعد أن آل الأمر إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه، جاءه كتاب

ورفض عثمان ﷺ الطلب في أول الأمر، لكن إلحاح معاوية وتمسكه برأيه دفعا عثمان إلى إعطاء الإذن لجنود المسلمين بغزو البحر، ولكن بشرط ألا يخرج أحد من المسلمين مُكرهاً، بل يكون خروجه عن رضىً وطواعية.

وسُرّ معاوية بموافقة أمير المؤمنين كثيراً، وانطلق يعدّ السفن والعتاد اللازم لهذه المهمة الخطيرة التي يتصدى لها المسلمون لأول مرة.

ولما استطاع معاوية إعداد أسطول كبير من السفن المجهزة بالسلاح ندب الناس للخروج إلى جزيرة «قبرص» لتكون أول منطلق المسلمين إلى البحر.

وأخذ الناس يتهافتون على التطوع والمشاركة في هذا الغزو طبقاً لأوامر أمير المؤمنين بعدم إكراه أحد على ذلك.

وحين علمت أم حرام بنت ملحان بذلك، سُرّت سروراً عظيماً، وذكرت لزوجها عبادة الرؤيا التي رآها رسول الله ﷺ حين أخذته سنة من النوم وهو في بيتها، وألحت عليه أن يخرجا مع المسلمين إلى «قبرص»، يحدوها الأمل بتحقيق بشرى رسول الله ﷺ لها، ولم يجد عبادة أمام إلحاحها بداً من القبول.

وتهيّأت سفن معاوية للانطلاق، قاصدة «قبرص» ثم انطلقت تمخر اليّم، باسم الله وبمباركته، وكانت على متن إحداها أم حرام وفاختةَ زوج معاوية بن أبي سفيان، تجلس إلى جانبها.

وينظر عبادة إلى وجه زوجه أم حرام فيراه يفيض سروراً وإشراقاً، ولم يكن أحد يدري ما يخبئه لهما القدر إلا الله

سبحانه وتعالى، وراحت السفن تتهادى فوق مياه البحر، وتدفع الأمواج التي تعترض سبيلها، وكانت الريح تهب رخاء على وجوه المؤمنين فتمسها مساً رفيقاً ليناً يبعث في نفوسهم النشوة والسرور.

وفيما كانت أم حرام تحدث زوج معاوية عن رؤيا رسول الله ﷺ والبشر يشع من عينيها، لاحت للناس عن بعد جزيرة «قبرص» المقصودة، فأخذوا يتأهبون للنزول مع أمتعتهم، ويتلون بعض الآيات من كتاب الله تعالى.

ولم يطل الأمر حتى سكت هدير المحركات وأنزلت المراسي، وتوقفت السفن تماماً على شاطىء الجزيرة، ثم بدأ جند الله ينزلون مع ما لديهم من عتاد وعدة، ونزل عبادة وزوجه أم حرام إلى الشاطىء، ولما أرادوا المسير قدموا لأم حرام بغلة لتركبها وجعلوها أمام صخرة لتتمكن من امتطاء صهوتها، وحين همت أم حرام بركوبها هاجت البغلة، واستعصت عليها، فسقطت أم حرام واندق رأسها على الصخرة، ورفع عبادة رأسها بين يديه فإذا هي تقول: أنت من الأولين، أنت من الأولين.

أجل إنها بشارة رسول الله ﷺ، لقد مضت أم حرام إلى ربها شهيدة، راضية مرضية.

وهناك على أرض جزيرة «قبرص» يجثم قبر أم حرام ويسمونه: قبر المرأة الصالحة، رحمها الله وأحسن نزلها، قال تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ﴾ [لقمان: ٣٤]. وانتصر المسلمون وعاد عبادة وحيداً مخلّفاً زوجه أم حرام على أرض جزيرة «قبرص».